

لـيبنـتس

LEIBNIZ.

بين الفلسفة والدين

للاستاذ عثمان أمين

ليسانسيه في الفلسفة والآداب

ليبنس فيلسوف الماني عاش في النصف الثاني من القرن السابع عشر . ويعتبر هو والفيلسوف « كانت » أكبر فلاسفة الألمان ومن أشهر فلاسفة العالم . منحه الله عقلا واعيا ، واستعدادا عجبيا لفهم الناس وقبول أقاويلهم المتباينة ، والتوفيق بين مختلف نزعاتهم ووجهات نظرهم : فكان يقول إن في كل رأى وفي كل نظرية — مهما يكن شأنها — شيئا من الحق ، لوتدبرنا وكنا في حكمنا من المتريثين . وكان يحترم نتائج الفكر أيا كان ، ويأخذ الحكمة أنى وجدها ، وعن أى لسان وفي أى كتاب . عكف على الاطلاع منذ صباه ، فكان يقرأ كل ما يقع في يده من الكتب ، وبدأ يتفلسف وهو بعد صبي يافع . وهو يحدثنا أنه كان يسير في متنزه ليزرغ ولما يبلغ الخامسة عشرة من عمره ، فيسائل نفسه أينجاز الى فلسفة ارسطاطاليس أم ديمقريطس .

برع في الفلسفة ونبع في العلوم الرياضية وفي القانون وفي التاريخ وفي فقه اللغة ، وفي جملة فروع المعرفة الانسانية . تقلد عدة مناصب ذات بال ، وتقلب في أعطاف النعيم والجاء دهرا . واذا كان قد وجد من الفلاسفة والمفكرين أمثال : سبينوزا وروسو ، من قضى حياة هم وعزلة وانقباض عن الناس ، فإن الفيلسوف ليبنس قد أقبل على الدنيا خير إقبال أو قل إن الدنيا هي التي أقبلت عليه فلم يعرف من الحياة غير وجهها المشرق الباسم ، وكان فيها من السعداء الهائنين .

عرف أكثر مفكرى أوروبا في عهده ، وجرت له معهم مراسلات ومناظرات ، واتصل بكثيرين من الأمراء والعظماء : توثقت الروابط بينه وبين امبراطور النمسا ، وبين بطرس الأ كبر قيصر روسيا ، كما لبث مستشارا وصديقا حميلا لأمراء هانوفر . أنشأ أكاديمية

برلين ، وسعى للتقريب بين الكنيسة الكاثوليكية والكنيسة البروتستانتية .
 حباه الله علماً وديناً ، وأسبغ عليه خلقاً وفضلاً ، وهياً له ماشاء من مراتب الشرف
 والاقبال . وانك لتلمح أثر هذه الحياة الباسمة باديا في سائر مآلف وصنف ، بل وفي تلك
 السكامة المشهورة التي طبع بها فلسفته الدينية ، والتي أصبحت من بعد لحياته شعاراً :
 « كل شيء حسن ، في أحسن العوالم الممكنة »

* Tout est pour le mieux, dans le meilleur des mondes possibles. *

صنف في الفلسفة والعلم والدين كتباً ورسائل شريفة ، كتب بعضها باللغة الفرنسية
 وبعضها باللاتينية وبعضها بالألمانية ، وأشهرها « مباحث جديدة في العقل الانساني »
 وهو كتاب كتبه ردا على الفيلسوف الانجليزي لوك ، ثم كتاب « تيوديسيه » ومعناها في
 اصطلاح لينتس (العدالة الالهية) ثم كتاب « مونادولوجيا » أى نظرية الجوهر الفرد .
 كان كريم المعثر ، دمث الأخلاق يألف الناس ويألفونه . وكان يتحاشى أن يؤذى أقل
 الحيوانات : فكان يأخذ الحشرة ليفحصها بالمكركسكوب ، ثم يعيدها الى الورقة التي
 انزعها من عليها في رفق ولين .
 حفلت حياته بجلال الأعمال ، وظل دأباً على التفكير والدرس حتى لقد فاضت روحه
 ويده كتاب يقرأه .

*
* *

رأى لينتس في فلسفة ديكارت وهوبز وسبينوزا خطراً يهدد مافى الطبيعة من
 اعتبارات دينية وفنية . لأن أولئك الفلاسفة ، على ما كان بينهم من اختلاف ، يتفقون
 جميعاً في أنهم أقاموا أو حاولوا أن يقيموا نسقاً طبيعياً ، آلياً (ميكانيكياً) محضاً ، من حيث
 جانب الوجود المادى ، أعنى أنهم تصوروا العالم خلوا من معانى الغاية والتدبير ، وكأنه في
 نظرهم ليس الا محض آلة تتحرك كما تتحرك الآلات .

فجاء لينتس وأخذ على عاتقه أن يتخطى هذا التصور الآلى للطبيعة ، وحاول أن يبين
 أن القوى التي تعمل في الآلية انما تحددها وتوجهها الغائية ، بحيث أن كل تدرج في
 الاسباب والنتائج الآلية ، إن اعتبر من الداخل ، صار تدرجاً في الوسائل والغايات . وان
 صميم العالم انما ينطوى في كل نقطة على اتجاه ، ونمو ، وتقدم .

وبفضل هذه الفكرة — التي وفقت بين مذاهب الآلية والغائية ، وبين حالات الجواهر الفردة على اختلافها ، كما لامعت بين الروح والبدن — ظن ليبنس أنه يستطيع بها في الوقت نفسه . أن يوفق بين العقل والدين ، وكان مقتنعا بأن فلسفته كفيلة بارتضاء أدق مطالب الدين وأبعدها . والحق أن ليبنس كان مخلصا في سعيه للتوفيق بين الفلسفة والدين . ولم تغب هذه الفكرة عن ذهنه مدى حياته . ولقد كان يؤمن أن جميع عناصر الكون وذراته مؤتلفة متسقة . وهذا الاتساق الكوني ليس ثمرة للمستقبل فحسب ، بل هو كامن في النفوس من قبل ، لكن أكثر الناس لا يعلمون .

*
* *

أما المسألة الدينية فقد أثار الكلام فيها « بيل (Bayle) » أحد كبار المفكرين من معاصري ليبنس ، وصاحب « القاموس التاريخي النقدي » المشهور . وقد كتب « بيل » بحثاً تناول فيه مسألة العناية الإلهية ، ووجود الشر في الدنيا ، أتى فيه على شبه الملحدين والمأنوية والايقوريين ، وانتهى منها إلى القول بأنه ، يرى أن الدين والعقل يتعارضان ولا يتفقان . وإن كان يؤمن بعقائد الدين .

وقد كان لتلك الشبه التي أثارها « بيل » في مسألة الشر أعمق الأثر في نفس ملكة بروسيا ، تلميذة ليبنس ، فطلبت إلى استاذها الفيلسوف أن يتولى دحض هذه الحجج وتقييمها ، فنهض الفيلسوف لهذه المهمة وصنف باللغة الفرنسية — التي كان يتقنها ايما اتقان — كتابه الموسوم « تيوديسيه » أي العدالة الإلهية ، وعنوانه الكامل : « بحث في خيرية الله وحرية الانسان وأصل الشر » . بادر ليبنس بنشر هذا الكتاب وقدم بين يديه رسالة عنوانها « مقال في موافقة العقيدة الدينية للعقل » وفي هذا المقال يرى الفيلسوف يعرض لمزاعم « بيل » بصدد الشر والعناية وينتهي إلى تقرير تلك النظرية الموروثة في علم الدين ، وهي أن حقائق الاعتقاد فوق العقل ، ولكنها ليست تنافيه . ثم أخذ ينبه على وجوب التفريق بين ماهو فوق العقل ، وبين ما ينافي الدين ، وأخذ يقسم الحقائق إلى : (١) حقائق عقلية أو أزلية وهي مبنية على مبدأ الذاتية (١) أي أنها ترجع إلى أشياء في ذاتها

(١) مبدأ الذاتية هو القائل على حد تعبير المناطقة المحدثين : ماهو ، هو . وما ليس هو ، ليس هو .

ومعناها واحدة ، والقول بضدها يستلزم التناقض . (ب) حقائق حاصلة جائزة ، وتقوم على مبدأ السبب الكافي^(١) . وضدها لا يستلزم تناقضاً ما .

وليس شيء مما ينبغي الاعتقاد به بجائز أن يناقض النوع الأول من الحقائق العقلية . أى الأزلية : فمثلاً وجود الله لا يكون ممكناً إلا إذا لم يتناقض مضمون الصورة الذهنية مع لفظ الله ، ولم تتناقض الصفات المنسوبة الى الله . لكن رأياً من الآراء يجوز أن يكون فوق ما تعلمنا التجربة . لأن الضرورة العقلية لتسلسل الظواهر — تلك الضرورة التي نجدتها عن طريق مبدأ السبب الكافي — هي دائماً محاطة بظروف . فالضرورة المنطقية أو «الميتافيزيقية» لقضية من القضايا تحصل مباشرة أو بالواسطة من امتحان حدود هذه القضية . وضرورة قضية من القضايا الحاصلة ، مثل قدوم الانجليز الى مصر عام ١٨٨٢ ، إنما ترجع الى حوادث سابقة ، كـرغبة الانجليز في الاحتفاظ بالهند أو الاستعمار . . . الخ .

وحيث إن تلك الحوادث السابقة ليست في نفسها ضرورية إلا بمقتضى ظروفها ، وهكذا الى غير نهاية ، فقد جاز أن نقول : إن عدم قدوم الانجليز الى مصر في تلك السنة ، يبقى ممكناً من الوجهة الميتافيزيقية . ومن أجل هذا يصح أن نعرف الحقائق الحاصلة أو الجائزة : بأنها تلك التي لا يمكن الوصول الى أسبابها الكاملة الا بتحليل لا نهائي يمتنع أن يقوم به العقل الانساني ، في حين أنه يكفي تحليل محدود لاثبات الحقائق العقلية الأزلية . ويرى ليننتس أن مبادئ علم الطبيعة لا تفسر الا بفكرة العناية والتدبير الالهي ، أعني بمبدأ غاي . ومبدأ السبب الكافي — مبدأ الحقائق الحاصلة — يقضى بنا الى ما وراء التجربة . ثم إن اثتلاف الجواهر الفردة ، والتسلسل القياسي لكل ما يحدث لا يمكن فعلاً أن يفسر إلا بـكائن مطلق ، خلق الدنيا بمقتضى اختيار صائب شديد . فكل شيء فردي ، وكل حادثة فردية ، في نفسها ممكنة ، فلسنا نتوصل اذن الى اتمام سلسلة العلل والاسباب ، وارضاء مبدأ السبب الكافي تمام الرضى ، ما لم نرجع الى سبب أول ، هو سبب لذاته ولا سبب له ، وهو الله . ويستدل ليننتس على صواب الاختيار الالهي بقوله : « ان ثمة خارج هذا العالم الموجود أى في العقل الالهي — عدداً لا نهائية له من العوالم الممكنة الوجود ، والتي لا يخضع كل

(١) مبدأ السبب الكافي هو — كما يعرفه ليننتس نفسه — « لا شيء يحصل مطلقاً دون أن يكون هناك علة أو سبب معين على الأقل ، يبرر لماذا كان وجود هذا الشيء أولى من عدم وجوده ، ولماذا كان هذا هكذا أولى من أن يكون على أي شكل آخر »

واحد منها الا لبدأ عدم التناقض . فن بين جميع تلك العوالم الممكنة ، أيها تقع عليه المشيئة الالهية العالية ، وأيها يختاره الله فيمنحه الوجود ؟ يجيب ليبنس من غير تردد بقوله « إن الحكمة العالية المقرونة بخيرية لا نهاية لها ، لا يعوزها أن تختار أحسن الأشياء » واذن فالله قد خلق بالضرورة أحسن العوالم الممكنة ، والدنيا الراهنة هي خير ما يمكن أن تكون . ذلك هو مذهب ليبنس في التفاؤل الذي نادى به ، وكان باذاعته من المحسنين .

وإليك صورة ملخصة من طريقته في الاستدلال على هذا المذهب المشهور قال : « الله هو السبب الأول للأشياء » فينبغي أن يكون ذا كمال مطلق في القدرة والحكمة والخيرية (١) ولما كان الله إنما يتصرف في خلق الأشياء وفق عقله الاسمي اللامحدود ، فان جليل حكمته المقرونة بخيرية لا حد لها ، لا يعوزها أن تختار من العوالم أحسنها ، لأنه إذا لم يكن الأحسن من بين جميع العوالم الممكنة لما اختار الله منها شيئاً . إذن فالله قد خلق ضرورة خير العوالم الممكنة ، اعني العالم الذي يحقق اكبر قسط ممكن من الكمال . »

ورب معترض يقول : إذا كان الله قد اختار من بين جميع الممكنات أحسنها ، فلم اذا جاء الشر ولم كانت الخطيئة ؟ وقد كان جائزاً أن يوجد المدبر الاول خيراً محضاً مبرأ عن الشر فيرد ليبنس بأن « تصور عالم ليس فيه شر ولا ألم هو أقصوصة من الاقاصيص ، ومحض خيالات (٢) » ولو محي الشر من الوجود أصلاً ، حينئذ لم يكن هو هو ، ولم يكن أحسن العوالم الممكنة . ولئن كان محو الشر جائزاً في الوجود المطلق فليس بجائز في الوجود الانساني وهو بطبيعته محدود ، ولن يطلب الكمال في شيء انساني أيا كان . ولا ينبغي أن تقصر نظرنا على جزء من العالم . بل يجب النظر الى المجموع المرتبطة أجزاؤه أوثق ارتباط ، وأحوال العالم مدبرة بعضها بالقياس الى بعض أحكم تدبير ، وما قد يبدو نقصاً في الجزء ، يكون في الكل كمالاً .

أأست ترى أن الصوت يكون في نفسه « نشاداً » فاذا التأم في مجموع موسيقى حصل منه تأثير شجي فائق ؟ والكل انما رتب فيه الله المدبر القوى الفعالة والمنفصلة والسموية والارضية ، الطبيعية والنفسانية ، بحيث يؤدي الى النظام السكلي ، مع استحالة أن يكون

(١) كتاب « العدالة الالهية » فقرة ٧

(٢) كتاب « العدالة الالهية » فقرة ١٠ . . . »

هو على ما هو عليه ولا يؤدي لها شرورا . على أنه قد يحدث من الشر خير في بعض الأحيان والشر في أشخاص الموجودات قليل ، ومع ذلك فإن وجود ذلك الشر في الأشياء ضرورة تابعة للحاجة الى الخير ، كالنار فإن كمالها الاحراق ، والاحراق بالقياس اليها خير وان كان شراً بالقياس الى المتألم منها .

يقولون : إن الشر في الدنيا أكثر من الخير وأغلب . ويقول ليبنتس : ان هذا خطأ فان الشر كثير ، ولكنه ليس بأكثر من الخير . فإلا أمراض كثيرة والمرضى كثيرون ولكنهم ليسوا بأكثر من الاصحاء المعافين . والواقع أن الله قد أسبغ علينا نعمة وخيرات وفيرة ، ولكن قلة انتباهنا اليها تقلل من شأنها ، والعادة تجعلنا أقل شعوراً بها .

ويقول « بيل » إن الانسان شقي شرير ، وان المستشفيات والسجون منتشرة في كل مكان ، وما التاريخ إلا مجموعة من جرائم الجنس الانساني ومصابه »

فيرد عليه ليبنتس : « أنا أعتقد أن في ذلك غلواً . فان في حياة الانسان من الخير شيئاً كثيراً لا يمكن أن يقاس به الشر ، كما يوجد من المنازل كثرة لا تقاس بها السجون . وعندى أن من عيوب المؤرخين أنهم يهتمون بنواحي الشر أكثر مما يهتمون بنواحي الخير (١) . »

لكن كون هذا العالم خير العوالم الممكنة لا يعنى أن يكون خلوا من الجوانب السيئة . مبرأ من الشوائب والعيوب . وهل يستطيع الانسان أن يقدر الشباب الا اذا جاوزه الى سن الشيخوخة ؟ ولقد ورد في الحديث الشريف ما معناه ، ان الصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يراه الا المرضى . فلكي يشعر الانسان بالسعادة اذا أقبلت ، يجب أن يكون قد عرف الشقاء ، وبغير الألم لا يكون للذة معنى . حكم على سقراط الفيلسوف بالموت ، فأودع السجن ، ولبت فيه مقيداً بالاضلال . ويرى لنا القفطى صاحب كتاب « إخبار العلماء بأخبار الحكماء » أن سقراط حينما فك عنه القيد شعر بشيء من اللذة فقال أمام جمع من أصحابه وتلاميذه : « ما أعجب فعل السياسة الالهية ! كيف قرنت الأضداد بعضها ببعض ، فانه لا يكاد يكون لذة إلا تبعها ألم ، ولا ألم إلا تبعه لذة . فانه قد عرض لنا بعد الألم الذى كنا نحده من ثقل الحديد في موضعه لذة »

وكم من أناس يبيتون آمنين في سربهم ، معافين في أبدانهم ، وهم مع ذلك لا يشعرون بهذه النعمة ولا يشكرون ، حتى إذا مسهم المرض ووات عنهم السلامة ، أصبحوا عليها نادمين .

على أننا نعلم أن شراً من الشرور . كثيراً ما يكون مصدر خير كثير ، وقائد الجيش تحدث منه أحياناً غلطة تقضى الى الظفر في معركة عظيمة .

يجب أن نعترف مع هذا بأن في الحياة الدنيا مساوئ ، وقلقل أظهرها ما يصيب ، الكثيرين من الأخيار ، من حظ عاثر ، وما يرتفع فيه الأثرار من عز وسلطان^(١) . ولكننا نقول مقتنعين أنه اذا كان الكرام الأبرار لا يجدون جزاءهم في هذه الدار ، ففي الدار الأخرى خير عزاء وجزاء . ذلك ما يقضى به الدين والعقل أيضاً^(٢) .

من الناس من يملوهم دائماً أن يشتكوا الاقدار . ويذموا الزمان . وهذا ناشئ في الحقيقة من ضعف النفوس ، وقلة رسوخ الأيمان ، ثم هو جزء من الاعتراض على تدبير الله سبحانه وما كانوا فيه من المنصفين . فينبغي ألا نسلك صراط أولئك المتذمرين الساخطين . وأن تقبل على الحياة باسمين متقائلين . وكذلك شأن المؤمنين المحسنين .

هذا مجمل لمذهب التفاؤل كما شاء أن يعرضه علينا فيلسوف الألمان وتلخصه نحن في تلك السكامة الاسلامية المشهورة . « ليس في الامكان أبدع مما كان » . وقد سقناه اليوم في طريق الجمع بين الفلسفة والدين . وقصدنا أن نوفق بذلك الى أن نرفع شكوك المرتابين ، وندفع عن العناية شبه المنكرين . ونسرى عن النفوس من وقع فاسفة العابسين المتشائمين ، وعلى الله وحده اعتمادنا ، وبه نستعين .

أما معضلة الشر . وكيف نشأ ودخل في القضاء الالهى ، فوعدنا بسطها في الشهر القادم إن أذن الله .

عثمان أمين

(١) « عدالة إلهية » ١١ فقرة ١٦

(٢) « عدالة إلهية » ١١ فقرة ١٧